المتنبـــــي

في يوم الأربعاء السادس من شوال سنة 1354 هـ، الموافق الأول من يناير سنة 1936 أصدر المقتطف عدداً خاصاً بالمتنبي بمناسبة انقضاء ألف سنة على وفاته مقتولاً، بقلم الأستاذ محمود محمد شاكر.

وأبو الطيب المتنبي هو شاعر العربية العظيم ولسانها الحكيم، جاء فملأ الدنيا وشغل الناس، كما قال ابن رشيق، وهو في الزمن ثم في الشعراء خاصة شخصية عجيبة، إذا أخذتها من يمين التوت بك إلى شمال، وإن ذهبت تطلبها من وجه راغت من وجوه، واستبهم أمره على الناس باستبهام الغرض الذي رمى إليه هذا الإنسان. كما قال أبو فهر محمود محمد شاكر.

ولم يَحظَ شاعر في العربية ما حظى أبو الطيب من العناية بشعره ودرسه ونقده، حتى قيل إن له أكثر من أربعين شرحاً في القديم، وحسبك بشاعر يجتمع على شرحه ابن جني وأبو العلاء المعري وابن سيده، ومن إليهم ومن دونهم. وقد جعل كل واحد من هؤلاء الشرّاح لنفسه شِرْعةً ومنهاجاً، على ما هو معروف في تاريخ الحركة النقدية حول المتنبي... حتى كان أول يناير منذ ستة وخمسين عاماً، وجاء أبو فهر وهو يومئذ ابن سبعة وعشرين عاماً كاتب مغمور بين الكتاب، فأدار كلاماً حول المتنبي ليس ككل كلام، وطبق منهجاً لم يسبقه منهج.

وقد تولى أبو فهر بيان «عمود صورة المتنبي» الذي بنى عليه كتابه هذا، وهو شيء غير مسبوق أيضاً في الدراسات الأدبية، فلم يعرف أن كاتباً قبله أبان عن منهجه فيما يدرس وفيما يكتب بهذا الوضوح الشديد، وتلك العناية الفائقة، حتى يجعل قارئه على ذكر وبينة مما يرد عليه ويمر به، وليس يشبه هذا ما تراه في كتابات الكاتبين، من المقدمة والتمهيد ونحوهما.

وقد كسر أبو فهر «عمود هذه الصورة» على فقرات ثمان، هي التي يتخلق من حولها تخطيط صورة أبي الطيب ومعارفها وقسماتها، وتكمن فيها شخصيته منذ مولده بالكوفة سنة 303، ثم تنمو سنة بعد سنة على مر الأيام والأحداث، فتفصح هي عنه ويفصح هو عنها بعد أن صار شاعراً تراه يغدو بها ويروح حتى يفارق الحياة مقتولاً سنة 354.

واللوحة التي رسمها أبو فهر لحياة المتنبي وتقلبه في العواطف والبلاد، لوحة مرسومة بذكاء شديد واستقصاء غريب، وكأنه رجل «مخابرات» ماهر، يتتبع شخصية ما، فهو يتعقبها في غدوها ورواحها، وحركتها وسكونها، ويقظتها ومنامها، وغضبها، ورضاها، ثم يكاد يحصي أنفاسها، بل يكاد يتدسَّس إلى المطوي في نفسها، وينتزع المخبوء تحت طي لسانها.

ولا شك أن ثقافة أبي فهر العربية قد ظاهرته على هذا الذي سلكه واصطنعه في البحث والنقد، فهو رجل قد خالط العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب والكتاب في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فرْقُ ما بينه وبين سواه من الكتّاب والنقّاد، فأنتَ قد تَجدُ ناقداً ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه جمع بين الذوق والبصيرة واللغة ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبي فهر من الأنس بالمكتبة العربية كلها، في فنونها كلها، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه دوران الدم في العروق.

ولقد كان ديوان المتنبي أول ديوان من الشعر، قرأه أبو فهر كله، وحفظه كله، وفتن به كله، وقد ثبطه عن المضي فيه نشوتُه بالشعر الجاهلي، وقد قضى ما بين سنة 1926 م إلى سنة 1935 م غارقاً في قضية الشعر الجاهلي، عقب ذلك الزلزال العنيف الذي رجه رجاً، حين خرج المستشرق الإنجليزي «مرجليوث» المتوفى سنة 1940 م على الناس بمقالته عن «نشأة الشعر العربي» وشك في صحة الشعر الجاهلي، وذهب إلى أنه شعر إسلامي، وضعه الرواة المسلمون في الإسلام ونسبوه إلى أهل الجاهلية، ثم ما كان من متابعة الدكتور طه حسين لهذه المقالة وبسطها في كتابه «في الشعر الجاهلي». وقد مشت هذه القضية بأبي فهر في رحلة طويلة شاقة، ودخلت به في دروب وعرة شائكة، أبان عنها في رسالته الفذة: في الطريق إلى ثقافتنا، قال في مقدمتها: «فأقدمتُ إقدامَ الشباب الجريء على قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا: من تفسير لكتاب الله تعالى، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين أحاديث رسول الله ﷺ وشروحها، إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل، إلى كتب الفقهاء في اللغة، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين (أي علم الكلام) وكتب الملل والنحل، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة، وكتب النحو وكتب اللغة، وكتب التاريخ، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم، وعمدت في رحلتي هذه إلى الأقدم فالأقدم. كل إرث أبائي وأجدادي كنت أقرؤه على أنه إبانة منهم عن خبايا أنفسهم بلغتهم، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومناهجهم. وشيئاً فشيئاً انفتح لي الباب يومئذ على مصراعيه، فرأيت عجباً من العجب، وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خفية كالهمس، ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول». وكانت سيرة أبي فهر في شأن الشعر الجاهلي: هي تذوق الكلام: تذوق الألفاظ والجمل، وتذوق دلالتها على معاني أصحابها، وكيف يصوغ كل صاحب فِكْر فِكْره في كلمات، وكيف يخطىء وكيف يُصيب، وكيف يستقيم على المعنى طلباً للحق، وكيف يلتوي طلباً للمغالطة أو الزهو أو الظهور على الخصم.

وقد طبق أبو فهر منهج التذوق هذا في دراسته للمتنبي، بل طبقه في كل كلام درسه: كتاباً أو مقالة أو حاشية في كتاب، لأن التذوق عنده «ليس قواماً للآداب والفنون وحدها، بل هو أيضاً قوام لكل علم وصناعة. . . وكل حضارة نامية تريد أن تفرض وجودها، وتبلغ تمام تكوينها، إذا لم تستقل بتذوق حساس حاد نافذ تختص به وتنفرد لم يكن لإرادتها في فرض وجودها معنى يُعقل». «أباطيل وأسمار ص 134).

وكان من سيرته في شأن الشعر الجاهلي أيضاً محاولة الاهتداء إلى ترتيب قصائد الشعراء على مدد من الزمن الذي عاشوه وقالوا فيه شعرهم، حاول ذلك في شعر امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى، ثم في شعر عمر بن أبي ربيعة وذي الرمة، ومع أنه لم يظفر بما يريد، ولم يحقق كل بغيته، فإنه انتفع بذلك المنهج التاريخي انتفاعاً طيباً في تذوق الشعر، ثم وظفه توظيفاً جيداً في دراسة شعر المتنبي، فقد كشف له حركة وجدان أبي الطيب في شعره في زمن طويل يمتد من سنة 337 إلى وفاته مقتولاً في سنة 354، وشعر أبي الطيب المحصور بين هذين التاريخين إنما هو النصف الثاني من ديوانه، وتاريخ القصائد في هذا النصف باليوم والشهر والسنة، مقترناً بالغرض الذي قيل فيه الشعر، والراجح أن هذا الترتيب والتاريخ إنما هو من عمل أبي الطيب نفسه، الذي جمع ديوانه بنفسه وأرّخه وقرأه على الناس، وهي ظاهرة غير معروفة في تاريخ الشعراء إلى يوم الناس هذا.

وعلى هذا فقد بقي النصف الأول من ديوان أبي الطيب المشتمل على شعره الذي قاله من سنة 314، إلى سنة 336 تقريباً غفلاً كله من التاريخ، إلا تاريخاً لا يغني غناء شافياً، كأن يقال: «قاله في صباه، أو قاله في المكتب»، وقد نهد أبو فهر لترتيب هذا النصف من الديوان، من طريق تذوق شعر أبي الطيب فقط، وما يعطيه هذا التذوق من دلالات واستنباطات مبينة عن حركة وجدان أبي الطيب في شعره، على اختلاف الأحوال والبلدان والناس الذين لقيهم والرجال الذين مدحهم.

وكان هذا عملاً شاقاً وعر المسالك، لقي فيه أبو فهر عناءً باهظاً، على أنه لم يعقد في كتابه باباً بعنوان «ترتيب قصائد المتنبي»، ولكنه فرغ من ذلك الترتيب ثم بثه في مواضعه من الكتاب، ومنذ أوله إلى نهاية الفصل العاشر، حتى التحم هذا النصف الذي أرخه أبو فهر من الديوان بالنصف المؤرخ منه قديماً، ثم قال أبو فهر في مفتتح الفصل الحادي عشر المؤرخ في سنة 336: «كانت قصائد أبي الطيب غير مؤرخة في ديوانه، ولكن منذ اتصل بأبي العشائر وسيف الدولة جاءت قصائده كلها مؤرخة بالسنة والشهر واليوم».

وهذا العمل من أبي فهر لم يسبقه إلى صنعه أو التفكير فيه أحد، ومن عجب أن الدكتور عبد الوهاب عزام عقد في كتابه عن المتنبي الذي صدر بعد كتاب أبي فهر بسبعة أشهر، عقد فصلاً بعنوان «ترتيب ديوان المتنبي» أفاد منه من صنيع أبي فهر، وإن لم يصرح، ولهذا موضع آخر من الكلام.

فهذا هو أول عمل يلقاك في هذا الكتاب، من «عمود صورة المتنبي» وهو التأريخ للنصف الأول غير المؤرخ من ديوان أبي الطيب.

ويشتمل «عمود صورة المتنبي» الذي أقامه أبو فهر بعد هذا على فقرات أخرى هي: نسب المتنبي، دعوة النبوة، صلته بسيف الدولة، حب خولة أخت سيف الدولة، مجيئه إلى مصر، وبقاؤه عند كافور الإخشيدي، ثم فراره من مصر... إلى قضايا أخرى ترتبط بهذه الفقرات أو تتولد عنها.

وقد عالج أبو فهر هذه القضايا كلها معتمداً على شعر المتنبي نفسه، وذلك لأن أبا الطيب «شاعر مبين، قلبه في لسانه، وعواطفه في بيانه»، ولأنه أيضاً «الشاعر الفرد الذي لا يكاد يخفى شعره على أقل الناس بصراً»، ولذلك جرى أبو فهر على أن يضع على رأس كل فصل من الكتاب أبياتاً من شعر أبي الطيب، ليدلك من أول الأمر على أن هذا الذي يأتيك من تحليل ودرس إنما هو من داخل شعر المتنبي نفسه، لا من شيء خارج عنه، إلا أن يكون هذا الشيء توثيقاً أو ظهيراً. ونعم قد أنبأنا أبو فهر أنه جمع كل ما وقع تحت يده من تراجم أبي الطيب التي

كتبها القدماء والمحدثون، ثم أخذ يوازن بين صورة أبي الطيب في هذه التراجم وبين صورته التي صورها له تذوق شعره مجرداً من تأثير هذه الأخبار التي رويت عنه، وقد جعله هذا يقارن ويستنبط ويكشف عن مواضع الخلل في الأخبار إن اختلت، وعن استقامتها إن استقامت. . . نعم أنبأنا أبو فهر بهذا من منهجه، لكن الناظر في الكتاب بتدبر وبصر يرى أن تعويله كان على شعر المتنبي وحده، في تحليله لشعره، ودلالته على حالته النفسية وأطواره المختلفة، ثم اختلاف هذا الشعر باختلاف مراحل العمر وتقلبات الزمان، ولمح الأصول التاريخية والنفسية والبيانية، ثم استخراج تاريخ قلبه ومصائبه كلها من داخل ذلك الشعر وحده، وأن رجوعه إلى مصادر التاريخ كان محدوداً جداً، مع معرفته بتلك المصادر، وإحاطته بمداخلاتها، ويظهر ذلك واضحاً في تحليله لشعر المتنبي في زمان صباه، واستخراج الأصول النفسية منه، لأن المصادر التاريخية لم تكن لتحفل بأبي الطيب في ذلك الوقت، أو كما قال: «وهذا العهد من حياة المتنبي لم ترد عنه رواية موثقة مستفيضة، وإنما عملنا فيه الاستنباط من قليل شعره الذي قيل في صباه، واستخراج الأصول النفسية منه، ثم مسيرها بعد وتدرجها معه حتى بلغت مبلغها في كبير شعره الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس».

علَويَّة المتنبي

هذه أخطر قضية في تاريخ المتنبي، وأبين فقرة في «عمود صورته»، وكان كل الذين ترجموا لأبي الطيب قديماً وحديثاً قد أجمعوا على التسليم بصحة ما رواه الرواة من أن والد أبي الطيب كان سقاءً بالكوفة، وأنه كان جعفياً صحيح النسب، وأن أمه كانت همدانية صحيحة النسب أيضاً، حتى جاء أبو فهر، وطلع على الناس صباح يوم الأربعاء السادس من شوال سنة 1354 هـ، الموافق الأول من يناير سنة 1936 م وشك في هذه الروايات، وبين فسادها، وقذف بها في وجوه رواتها. وقد أدخله هذا الشك مداخل كثيرة، خرج منها برأي لم يسبق إليه: وهو أن أبا الطيب كان علوياً شريف النسب، ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان الرواة قد رووا هذا الخبر «إن والد المتنبي كان سقاءً بالكوفة». عن كلام للقاضي أبي علي المسحن بن علي التنوخي، تتبعه أبو فهر تتبع قائف الأثر، حتى انتهى به إلى أسباب كثيرة من الوضع والتخليط والوهن وغلبة الهوى، فاقتلع الخبر من جذوره، وهدمه هدماً، واختفى تحت الأنقاض باطل كثير.

وكانت البداية معنى من المعاني، رَصده أبو فهر في شعر أبي الطيب، ورآه يجول فيه، يلمع حيناً ويخبو حيناً، فكان عنده سراً من الأسرار، لعله أن يكون مفتاحاً تتسنى له الأبواب المغلقة في نسب الرجل ومعرفة أصله الذي يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع.. ثم كان فرض افترضه أبو فهر: «أن أبا الطيب علوي النسب» فكيف تأتى له هذا الفرض؟.

أبو الطيب ولد بالكوفة سنة 303، والكوفة يومئذ دار من ديار العلويين يكثرون بها، فلا عجب أن تكون القصيدة الأولى في ديوانه (وعدد أبياتها 43 بيتاً) وهي مما قاله في صباه، في مدح رجل علوي هو «محمد بن عبيد الله العلوي المعروف بالمشطب» وهي تلك القصيدة الفخمة، التي مطلعها:

أهـلاً بـدارٍ سبـاك أغيـدُهـا   أبعـدُ مـا بـان عنـك خُـرَّدُهـا

وقد استظهر أبو فهر أنه قالها سنة 318، وعلى مذهبه في التذوق واستنطاق الشعر، رأى أن هذا الممدوح العلوي من لدات أبي الطيب، وأنه كان يحبه ويجله، ويحفظ له ما أسدى إليه من معروف وصنيعة، لقوله:

لـه أيـادٍ علـى سـالفـه   أعُـدُّ منهـا ولا أُعـدِّدُهـا

في سنة 336 قدم المتنبي على ابن طُغج بالرملة، فقال له: إني لفظت الناس لما بلغتك لفظ المسافر حثالة زاده إذا نزل أرضاً كثيرة الخير موفورته:

كريم نفضتُ الناس لما بلغتهُ   كـأنهـم مـا جفّ من زاد قـادم
وفارقت شر الأرض أهلاً وتربة   بهـا «علـوي» جـدهُ غيـر هـاشـمِ

فهو هنا يذم «علوياً» ذماً صادراً من نفس جريحة. ثم يطلب إليه ابن طغج أن

يمدح علوياً آخر هو «أبو القاسم طاهر بن الحسن» فيمتنع أبو الطيب ثم يستجيب، لكنه قبل أن يدخل إلى مدح أبي القاسم هذا، يذم نفراً من العلويين، ويفسر سبب ذمه فيقول:

أتـانـي وعيـدُ الأدعيـاء أنهـم أعَدُّوا ليَ السُّودان في كفر عاقبِ
ولو صدقوا في جدهم لحذرتهم فهل في وحدي قولهم غير كاذبِ

فليس إذن «علوياً» واحداً، بل «علويون» كثير، أرصدوا له فتياناً شِداداً سوداً ليقتلوه. وهنا وقف أبو فهر واستوقف: «إن هناك قضية ضخمة بين أبي الطيب والعلويين» ثم نبّه إلى التناقض الظاهر بين شخصية أبي الطيب التي يكونها تذوق شعره، وبين شخصيته التي يدل عليها تذوق أخباره!.

وقد أخذت هذه العلوية في حياة أبي الطيب وفي شعره تؤرق أبا فهر، حتى وقف على خبرٍ نادرٍ جداً، أضاء له دنيا أبي الطيب كلها: وذلك ما جاء في خزانة الأدب للبغدادي 1/382، حكاية عن أبي القاسم الأصبهاني، الذي كان موجوداً سنة 336، قال: «إن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة... واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة، فكان يتعلم دروس العلوية لغة وشعراً وإعراباً». فهذا خبر خطير، مطروح في كتاب شهير مطبوع بمطبعة بولاق سنة 1299 هـ، لا تخلو منه مكتبة عالم في ذلك الزمان، لم ينتبه إليه أحد حتى جاء أبو فهر فاقتنصه ومضى به يلتمس في هداه علاقة أبي الطيب هذا الكوفي بالعلويين الذين كانت ديارهم هي الكوفة مسقط رأسه وفيها منشؤه إلى أن جاوز السابعة عشرة. وبين دلالة تذوق الشعر ودلالة تذوق الأخبار لم يجد مناصاً من فرض هذا الفرض، وهو أن المتنبي «علوي النسب» وقد عرض على هذا الفرض شعر أبي الطيب كله، فلان عصيُّه، واستقام معوجه.

وقد قبل هذا الفرض من قبل، ورفضه من رفض، وتوقف فيه من توقف. وبعد انقضاء نحو أربعين عاماً من هذا الفرض جاء التصديق الذي لا يكذب، والبرهان الذي لا يدفع: وذلك ما جاء في ترجمة للمتنبي، كتبها معاصر له، سمع

منه شعره، هو أبو الحسن الربعي، وقد جاءت هذه الترجمة في آخر شرح الواحدي على المتنبي، من نسخة مخطوطة نفيسة محفوظة بمكتبة فيض الله باستانبول، كتبت سنة 593 هـ، وفي هذه الترجمة يقول الربعي حكاية عن المتنبي: «وقال لي: مولدي الكوفة، ورضعت بلبان علوية من بنات عبيد الله بن يحيى (علي)». وهذا الخبر هو الأساس لما ذكره ابن عساكر وابن العديم والمقريزي، في ترجمة المتنبي.

إذن فالمتنبي علوي، إلا يكن من أنفسهم صليبة فهو علوي رضاعاً، أي أخوهم من الرضاع، والرضاع لُحمة كلحمة النسب، ولذلك حرم الله به ما يحرم النسب.

وترى بعد ذلك في كتاب أبي فهر آثار هذه العلوية في مصائب أبي الطيب التي كشف عنها شعره، والتي جاءت بها أخباره، فالقول بأن أباه كان سقاءً جاء من طريق رواية علوية، وكذلك القول بنبوته، ثم التحريض على قتله في كفر عاقب، وسجنه بالشام، ثم حديث جدته وتعلقها به وتعلقه بها، وكانت هذه الجدة العجوز «من صلحاء النساء الكوفيات، حازمة، طيبة الروح، ذكية النفس» وقد أخذت حفيدها بالجد، وحببت إليه مكارم الأخلاق، وزينت له الفتوة وعلو النفس وبعد الهِمة وعظم المطلب، ومن وراء ذلك عرفته نسبه الزكي، واستكتمته البوح به وإذاعته، ويؤكد هذا ما حكاه ابن العديم وغيره في ترجمته «إنه كان يكتم نسبه».

وإذا كان أبو فهر قد فرغ من نسب المتنبي العلوي، الذي فرضه فرضاً ثم جاءت التراجم والأخبار تؤكده، فإنه لم يعرض لوالد المتنبي، لأنه لم يجد بين يديه من تذوق شعر أبي الطيب، أو من صحيح الأخبار، ما يفصل في أمر هذا الأب المسمى «الحسين» والملقب «عيدان السقاء»، وكل الذي صنعه أبو فهر أن عرض لهذا الخبر ـ خبر السقاية بالكوفة ـ وأبطله من وجوه كثيرة، كما سبق. وسيظل أمر هذا الأب لغزاً من الألغاز، على أن أبا فهر افترض فرضاً أيضاً: أن يكون هذا الأب علوياً تزوج امرأة هي أم ابنه أحمد، المتنبي، ثم حيل بينه وبين

إظهار نسب ولده إليه، لسبب من الأسباب التي توجب الكتمان إلى حين، واستشهد أبو فهر لهذا الفرض بقصة شبيهة في باب كتمان النسب، هي قصة أبي جعفر المنصور ـ ثاني الخلفاء العباسيين ـ وولد كان له من إحدى بنات دهاقين الأهواز، قبل توليه الخلافة. . . إلى آخر ما ذكر.

ويبقى أن أشير إلى أن شعر المتنبي في أصله هذا الزكي العالي، منثور في ديوانه كله على امتداده وتنوع أغراضه، بل إن شعور المتنبي بهذا الأصل العريق واهتضامه يصاحبه ويؤرقه منذ نعومة أظفاره. فقد حكى ابن جني صديق المتنبي في كتابه «الخاطريات» ص 74، قال: «أخبرني بعض أصحابنا قال: جيء بالمتنبىء ـ يعني شاعرنا ـ وهو صبي بذؤابة له إلى أبي بكر محمد بن الحسين بن دريد، فقيل: إنه شاعر، فقال: أنشدنا يا فتى شيئاً من شعرك. فأنشده المتنبي:

مـتُّ إن لـم تـأخـذوا بـدمـي   يـا لَقَحْطـانِـي ويَعْـرُبِيَـهْ

قال: فمسح يده على رأسه، وقال: لا بل نأخذ بدمك». وهذا خبر نادر جداً كما ترى، والبيت المذكور ليس في ديوان المتنبي بكل طبعاته، ولا في زوائد ديوانه التي جمعها العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وواضح أنه من شعر أبي الطيب في صباه الذي أسقطه أو نسيه.

دعـوى النبـوة

النبوة في حياة أبي الطيب هي أبرز الحوادث في تاريخه، وكانت موضع خلاف وتخليط كثير، وقد ارتبطت دعواه النبوة بدعواه العلوية، وقد تتبع أبو فهر روايات النبوة هذه، وانتهى بها إلى الوضع والتلفيق، ثم وهن القائل بها، وأنه رجل لا عقل له وأن قصة النبوة هذه قد وضعت على الأرجح بعد وفاة المتنبي بزمان. أما قصة تلقيبه بالمتنبي فلها عند أبي فهر أسباب: منها أن أبا الطيب كان من أول أمره متورعاً في خلقه، آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتر، وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها «فما كذب ولا زنى ولا لاط»، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له،

محققاً لدقائقه، وكانت له منزلة رفيعة عند أئمة اللغة والأدب والنحو، كأبي علي الفارسي وابن جني والربعي. وكان أبو الطيب في أول شعره يكثر من ذكر الأنبياء، ويردد أسماءهم في شعره، ويشبه نفسه بهم، ويقيس أخلاق ممدوحيه إلى أخلاقهم. فمن ذلك قوله في نفسه:

ما مقامي بأرض نخلة إلا   كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله   غريب كصالح في ثمود

وقوله:

أنا الذي بيَّن الإله به الأقدار   والمرء حيثما جعله

وكذلك جرى أبو فهر في نقد روايات نبوة المتنبي، والتماس أسباب لتلقيبه بهذا اللقب، جرى على نفس منهجه في إثبات علويته، وهو الاعتماد على تذوق شعر المتنبي نفسه وما يعطيه من دلالات واستنباطات، ثم على فهم روح العصر، وغربلة الكلام، وكشف زيفه أو تناقضه. وكما جاء تصديقه في أمر «العلوية» بسنين طويلة، في المخطوطات المكتشفة، جاء تصديقه في أمر «النبوة» وأنها لقب نبز به، ولا حقيقة له: وذلك ما جاء في كلام أبي الطيب نفسه الذي حكاه صديقه الربعي، المشار إليه في رضاع أبي الطيب من المرأة العلوية:

قال الربعي: «قال لي أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن: «كان يثقل عليّ أن أدعى المتنبي دهراً، إلى أن أنست به، وقبَّح الله أهل الكوفة، يضيقون في الأسماء على أنفسهم، فلا يفرق بين بعضهم وبعض إلا بألقاب».

وهكذا حُسم أمر خطير في تاريخ أبي الطيب، وبطلت حماقة «النبوة» بحمد الله.

صلته بسيف الدولة

عشر سنوات كوامل ـ من سنة 336 إلى سنة 346 ـ قضاها أبو الطيب في رحاب سيف الدولة الحمداني صاحب الشام المستولي على أمرها، المنتزعها من

يد بني طغج الإخشيديين الأتراك، وبنو حمدان عرب تغلبيون.

وكان أبو الطيب قبل أن يتصل بسيف الدولة قد تقلب في البلاد، وأوجع قلبه ما رآه من غلبة الأعاجم على الدولة العربية، وأخذ يتلفت ليجد قائداً عربياً يضع عنده آماله وأحلامه في استنقاذ العزة العربية، وقد وجدها أول الأمر عند أبي الحسين بدر ابن عمار الأسدي والي طبرية، وأحد رجال ابن رائق المتغلبين على الإخشيديين بالشام، وقد رأى أبو الطيب في بدر بن عمار مثالاً للفتوة والمروءة ثم رآه قريباً منه في بغض العجم، وقد قال فيه يمدحه لأول مرة، وكأنه ينتظر الفرج على يديه:

أحلمـاً نـرى أم زمـانـاً جـديـداً　　أم الخلق في شخص حي أعيدا

وقد بقي المتنبي في جوار بدر بن عمار وفي مجالسه، وفي عربيته من أواخر سنة 328 إلى أوائل سنة 333. وبعد بدر بن عمار اتصل أبو الطيب بأبي العشائر الحمداني، وكان والياً على أنطاكية من قبل سيف الدولة، وكان أبو العشائر أيضاً على ما يوافق أبا الطيب، شديد العداوة للروم والترك والديلم، الذين أغاروا على الدولة العربية بالجيوش تارة، وبالدسائس تارة أخرى. وقد مدح أبو الطيب أبا العشائر أيضاً، ولكنك تحس في مدائحه له ما أحسسته في بدر بن عمار، من طلب رفع الغاشية عن العرب، وانتظار الفرج الكاشف لكل غمة. يقول:

فسرت إليك في طلب المعالي　　وسار سواي في طلب المعاش

على أن صلة أبي الطيب بأبي العشائر إنما كانت تطريقاً وتمهيداً لصلته بأمير العرب الهمام سيف الدولة الذي ادخر له أبو الطيب «ذخائر قلبه وكرائم فؤاده».

وإنه لَعَسِرٌ عليَّ كلَّ العُسْرِ أن ألخص هنا علاقة أبي الطيب بسيف الدولة خلال هذه السنوات العشر، ومداخلاتها العجيبة، وآثارها في شعر أبي الطيب وخصائصه الفنية، على الحد الذي رسمه وكشفه أبو فهر، فالذي فتشه وناقشه وكتبه أبو فهر في هذا الموضع لا يلخص ولا يختصر، ولا يدرك حق الإدراك إلا إذا قرىء في بيانه، وحصل في سياقه. لكن لا بد من الإشارة إلى أن أبا الطيب قد

وجد في سيف الدولة ضالته المنشودة، وآماله المترددة في صدره، فلقد كان سيف الدولة خاصة من بين بني حمدان أكثرهم دهاء، وأوسعهم حيلة، وأشدهم حباً للعرب ودينهم، وأكثرهم سعياً في رد الحكومة والسلطان إلى العرب، وكان له مع الروم وقائع وأيام شغلته عما كان قد عزم عليه من ضم أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته. يقول أبو فهر: «وكذلك لاقى العربيُّ الثائرُ الشاعرُ الفذُ، العربيَّ الفاتح الغازي المجاهد الفذ، على شوق وحنين، وحن الدم إلى الدم، وعلقت النفس بالنفس، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر، أخرجت كلا الرجلين عن طوره، وكان هذا اللقاء الفاني فاتحة مجد أبي الطيب، وخلود ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه».

وعلاقة أبي الطيب بسيف الدولة مما خلط الناس فيها تخليطاً شديداً، قديماً وحديثاً، لكن أبا فهر وضعها في حاق موضعها، من داخل شعر المتنبي وتذوقه، على منهجه اللاحب المستتب في الكتاب كله. ثم وقف وأطال الوقوف على شعر المتنبي في هذه الحقبة الغنية من حياته في جوار سيف الدولة، وبذل لهذا الشعر من سخاء عقله وذكاء لسانه ونداوة قلمه ما جعله يتلألأ ويتضوأ في سماء الشعر العربي.

ومهما كانت دواعي الوجازة والاختصار، فإني لا أستطيع أن أغفل الإشارة إلى ذلك المبحث التاريخي النفيس الذي أداره أبو فهر ـ وهو في تلك السن الشابة ـ حول بني حمدان الذين هم من شيعة العلويين، إلا أنهم كانوا عرباً يدعون إلى العلوية للعربية، لما وجدوا من غلبة الأعاجم على الدولة العباسية، ولكنهم حين رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الأعاجم، ومن الدعوة الفاطمية الجارفة، رجعوا فانحازوا إلى الدولة العباسية ينصرونها. وقد نبّه أبو فهر إلى أن عناصر العجم من الروم والترك والديلم هم الذين يحركون مَلِك الروم ويغرونه بقتال سيف الدولة، لكي يشغلوا هذا ويصرفوه عن غزوهم وتمزيقهم وانتزاع سلطانهم على العرب من أيديهم.

حبّ خَوْلة

وهذه فقرة بارزة في «عمود صورة المتنبي» لم يعرفها ولم يقف عندها أحد من دارسي أبي الطيب قديماً وحديثاً، وقد استخرجها أبو فهر أيضاً من تذوق شعر المتنبي وحده، بل إن هذه القضية تكاد تكون هي القضية الوحيدة في الكتاب التي لم يجد لها أبو فهر ظهيراً من رواية تاريخية، أو حكاية مروية لا من قريب ولا من بعيد: إذن فهو تذوق شعر أبي الطيب ليس غير.

وقد أنبأنا أبو فهر أنه استوقفه وهو يتتبع شعر أبي الطيب، الفرق الكبير الكائن بين شعره الأول وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة، فلم يستو عنده أن يكون ذلك من أجل روح البطولة والفتوة، ورد السلطان إلى العرب والعربية بعد غلبة الأعاجم وتمزيقهم للدولة الإسلامية، وكل ذلك مما أمله أبو الطيب في سيف الدولة، فيقول أبو فهر: «فعُدنا نجدد الرأي لذلك، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعاني، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا إلى السبب الأكبر في هذا التجويد الفذ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية، فاستروحنا في شعر الرجل نفحة من نفحات «المرأة» التي تكون من وراء القلب تصنع للشاعر المبدع بيانه، وتتخذ من فنها النسوي مادة تهيئها لفن صاحبها وعبقريته ونبوغه. فأتممنا الأمر على ذلك ورجعنا إلى شعر أبي الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه، وتمثلها «المرأة» بينهما وهي دائبة تصنع له بيانه وتهيىء له فنه، فاستوى الأمر على ذلك، وطلبنا الدليل، فدلنا على المرأة التي سكنت قلب أبي الطيب، وهو في ظل سيف الدولة، وجعلته حكيم الشعراء وشاعر الحكماء».

وقد دخل أبو فهر إلى قضية حب أبي الطيب خولة من خلال رثائه الأخت الصغرى لسيف الدولة، وقد خلص من ذلك الرثاء بجودة الفهم والاستنباط إلى تعلق أبي الطيب بخولة الأخت الكبرى، حتى إذا ماتت خولة بعد أختها بسنوات ثمان جاء رثاؤه لها وهو بالكوفة، حزيناً ملتاعاً، كاشفاً كل مخبوء، وفاضحاً كل مستتر، وهي تلك القصيدة التي يقول فيها:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر　　فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

يقول أبو فهر عقب إنشاد أبيات من تلك القصيدة وتحليلها: «ولست تخطىء فيما نرى ما تضمنته هذه الأبيات من القصيدة من العاطفة التي عطفته على هذه التي يرثيها، وما يتوهج في ألفاظها من نيران قلبه، ولست تخطىء أنين الرجل وحنينه وبكاءه». ثم أخذ أبو فهر يستل دفين هذه العلاقة شيئاً فشيئاً من شعر أبي الطيب، ويتتبع آثار ذلك الحب الملفف، في شعره، إلى أن يقول:

«فكل ذلك آثار بينة على انتقال طبيعة أبي الطيب من تكبرها وعتوها وتزمتها، إلى حالة نفسية طارئة قد نفدت فيه آلامها وأهوالها، فهو يعاني منها ما يعاني، ويضطرب لها ويهتز ويتلذع».

وقد عالج أبو فهر حب أبي الطيب خولة بفيض من الوجد الغلاب، والشاعرية الشفيفة التي ترقرقت في كلماته حزناً كاوياً، وحسرة ملتاعة، وعبرات تكاد تجول على الورق، وكأني بأبي فهر حين كتب هذا الكلام، وأبان هذه الإبانة إنما كان يعيش «حالة حب» كتلك التي عاشها أبو الطيب، ووجد مسها وتباريحها، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده... وأنت من وراء حديث الحب هذا، وإذا عايشت أبا فهر وداخلته لا تكاد تخطىء مشابه وملامح بينه وبين أبي الطيب، ولهذا موضع آخر من القول.

علاقته بكافور الإخشيدي

في أواسط سنة 346 غادر أبو الطيب حلب، وفارق سيف الدولة غير مختار لفراقه، لكنها الوشاة والحساد، وحب خولة الذي ملك عليه أقطار نفسه، فسار من حلب قاصداً دمشق... ثم رمته البوادي والفلوات إلى أرض مصر وإلى كافور. وقد أدار أبو فهر كلاماً حول علاقة أبي الطيب بكافور، انتهى به إلى أن كافوراً نفسه كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يُضمر له حباً ولا كرامة، بل كان يزدريه في نفسه، وحسبه ما لطمه به في أول لقاء، وذلك قوله:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنايا أن يكون أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

فاستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء، وفيه إقذاع وفحش وسخرية وتهكم. وقد استخرج أبو فهر من شعر أبي الطيب أبين الدلالات على سخرية أبي الطيب من كافور، وحقارته في نفسه. ومن أبرع هذه الاستخراجات وقوفه عند هذين البيتين في مدح كافور:

وما كنت ممن أدرك الملك بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيا
عِداك تراها في البلاد مساعياً وأنت تراها في السماء مراقيا

قال أبو فهر: «وهذا البيت الأخير تعريض بسقوط همة كافور، وليس بمدح، وكان حق المعنى أن يكون:

عداك تراها في السماء مراقيا وأنت تراها في البلاد مساعيا

وذلك لأن الأعداء يستعظمون ما كان من تملكه البلاد، ويعدونه أمراً عظيماً كالرقي إلى السماء، وذلك لحسدهم وعداوتهم التي تربو في صدورهم، فترمي في الواقع بالوهم فيتعاظم في العيون، ولكن كافوراً لبُعد همته لا يراها أمراً عظيماً، بل هي مساع في الأرض، لا جهد فيها إلا كجهد المشي... فهذا هو المعنى الذي قلبه أبو الطيب ببيانه القوي، ليعرضه مدحاً، وهو ذم بليغ وهجاء نافذ».

ثم خرج أبو الطيب من مصر وقد اجتواها وكرهها وذمها، وقد مهد له أبو فهر العذر فيما صنع، لأن الرجل دخل مصر محطوم القلب مرضوض الفؤاد، منكوباً في نفسه وآماله وقلبه وهواه، وزاده القوم كيداً، وأثبت عليه كافور عداوة باغية، وهو الذي أقدمه على مصر بطلبه.

وقد قضى أبو الطيب في جوار كافور بمصر خمس سنوات من سنة 346 إلى سنة 350، وشعر أبي الطيب في هذه السنوات الخمس الأخيرة من عمره مختلف كل الاختلاف من جميع شعره، مباين له في الصياغة، حافل بمهارات لا يطيقها إلا

قلة من الشعراء الكبار حين يقعدون في المحنة المحرقة. ومع هذا فإن كثيراً من دارسي المتنبي قد خلطوا تخليطاً شديداً في تحليل هذه الحقبة من شعر المتنبي وعمره، وتابع بعضهم بعضاً على افتراضات وظنون صارت عند القوم كأنها حقائق مؤكدة. يقول أبو فهر: «وشعر هذه السنوات التسع لم يقرأه أحد بعناية كافية، وكل ما خرج به قارئو شعر المتنبي هو هذه القضية الرثة السخيفة: أن المتنبي مدح كافوراً ثم هجاه! وأشباه ذلك من القضايا المستبردة الهالكة، يتعالم بالحديث فيها دفاعاً عنه أو قدحاً فيه من يتعالم، وشعر أبي الطيب في هذه السنوات كان خلاصة تجاربه في حياته، وجماع معرفته بالرجال والأمم، وثمرة ناضجة قد استمدت إتاءها ونضجها ومذاقها من حياته كلها، منذ كان صبياً إلى أن بلغ ما بلغ، حيث وقع التناقض بين آماله التي عاش بها وفيها أكثر من ثلاثين سنة (314 ـ 346) وبين الواقع الذي يصبح فيه ويمسي، وهو في قبضة (دولة الخدم) أنى ذهب».

وتأخذ شمس أبي الطيب في الأفول: فقد خرج من مصر، وصحبه أبو فهر في رحلته بين الكوفة وبغداد، واتصاله بابن العميد في أرجان، وعضد الدولة بشيراز إلى أن قتل في 27 من رمضان سنة 354 بدير العاقول بالعراق، منصرفه من شيراز. وأبو فهر في ذلك كله لا يزال واقفاً عند شعر أبي الطيب، متذوقاً له محللاً، مستخرجاً أقصى ما يستطيع أن يستخرجه ناقد من شعره، ودلالته على نفسيته، ومحنته في آماله ونسبه وحبه لخولة، راداً بعض الشعر إلى بعض، على تباعد الزمان والمكان في حياة أبي الطيب.

أما تلك التهم التي أحاطت بالمتنبي، من النفاق والكذب والتناقض والتقلب والتكبر والحمق، وأنه كان ضعيف الإرادة، ذليلاً منقاداً مستخذياً، محباً للمال حريصاً عليه: فقد قام لها أبو فهر وردها من تذوق شعر أبي الطيب وحده.

فهذه أجزاء «عمود صورة المتنبي» كما أقامها أبو فهر، قرأتها على مكث، وقدمتها على عجل، ولم يبق إلا ذكر مثالين من استخراجات أبي فهر من شعر أبي الطيب، يكونان دليلاً على غيرهما مما تراه في سائر الكتاب:

استخرج أبو فهر من قصيدة المتنبي في رثاء جدته أن أمه ماتت وهو صغير، وذلك قوله:

طلبتُ لها ففاتت وفاتني　　وقد رضِيتْ بي لو رضيتُ بها قِسْما

يقول أبو فهر: «فتدبّر الشّطر الأخير فضلَ تدبّر، تجد المعنى الذي أردناه من أن أمه ماتت وهو صغير، فكان مِما (قُسِم) لجدته أن تحتضنه، فرضيت بذلك رضاً خالصاً، وأحبته حباً عظيماً، وهي إشارة دقيقة بليغة مقدَّرة».

والثاني: أخبرنا أبو فهر غير مرة أنه كانت بين سيف الدولة وأبي الطيب أسرار سياسية تخص أغراضهما وآمالهما في إعادة المجد العربي، وإزالة الحكام الطاغين من الموالي، وقمع الفتن التي قام بها العلويون والفاطميون في البلاد، ويستخرج أبو فهر شيئاً من هذه الأسرار: ففي سنة 353 كتب سيف الدولة إلى أبي الطيب كتاباً بخطه، يسأله المسير إليه، فأجابه أبو الطيب بقصيدة، قال في أولها:

فهمتُ الكتاب أبرَّ الكتبْ　　فسمعاً لأمير أمير العربْ

يقول أبو فهر: فإذا كان هذا الكتاب، كما وردت الرواية، قاصراً على رغبة سيف الدولة إلى أبي الطيب في أن يلحق به، ويكون في جواره، فيكون قول أبي الطيب:

(فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأرذله وأحطه وأسقطه، ويكون سقوطاً قد أصاب عقل هذا النابغة، أيقول أبو الطيب إنه فهم كتاب سيف الدولة (الذي كتبه له بخطه) يسأله أن يسير إلى الشام؟ وما في هذا الطلب مما يحتاج إلى «الفهم»؟ وما فيه مما تقتضي الإجابة عنه أن يخبره بأنه قد فهمه؟ أيكون هذا أو يُعقل؟ والبيّن أن سيف الدولة كتب إلى الطيب ـ بعد القصيدة التي مرَّ ذكرها، والتي أغراه فيها بغزو العراق وفتحه ـ كتاباً يشرح له فيه الأمر غير مصرح بشيء ويذكر العوائق التي تعوقه دون غرضها، وبيّن له ما هو فيه من الكرب والضيق. . . ».

وبعد، فاعلم أيها القارىء الكريم ـ علّمك الله الخير، ودلّك عليه، ورغّبك

فيه - أني لن أستطيع أن أبلغ بكلماتي هذه ما أريده لك من معرفة هذا الكتاب (المتنبي) حق المعرفة، إلا أن تأتي عليه كله: قراءة وتدبراً وبصراً، فلعلك بالغ بقوتك وأناتك ما لم أبلغه بضعفي وعجلتي.

ويبقى موضع للعجب العجيب: لقد صدر هذا الكتاب سنة 1936 م، كما أخبرتك، وأحدث صدوره دوياً هائلاً، فكتب عنه الرافعي في الرسالة، ونظم فيه الشاعر أحمد محرم، والشاعر محمد عبد الغني حسن، وكتب عنه سعيد الأفغاني من الشام، وكان ظهوره بداية صفحة جديدة بين أبي فهر والعقاد، بعد غبار معركته مع الرافعي، واهتز له أدباء المهجر، وجاء الثناء عليه من كل أنحاء الدنيا، وأخذ منه من أخذ. . . ثم سكت الناس عنه بعد ذلك سكوتاً طويلاً، وطويت صفحته إلا من إشارات سريعة لبعض دارسي المتنبي، لا يريد كاتبوها إلا أن يقولوا إنهم رأوا كل ما كتب عن المتنبي (ببليوجرافيا) ليس غير! ثم تسأل: لماذا لم ينتفع بهذا المنهج الذي سنه أبو فهر في دراسة «الشعر والشاعر» ولماذا لا تدرس فصول من هذا الكتاب - على الأقل - في كليات الآداب، وأقسام اللغة العربية بالجامعات؟ هل هذا يرجع إلى موقف خاص من أبي فهر، أم أنه راجع إلى الحظوظ، وحظوظ الكتب كحظوظ الناس، يصيبها ما يصيبهم من ذيوع أو خمول، أم أن أبا فهر قصّر في حق نفسه، حين لم يتابع الكتابة بعد هذا العمل العظيم، فأعان على نسيانه، وعدم التنبه له، أم أن أبا فهر لم يجد التلاميذ والأشياع والمريدين الذين يتقدمون الموكب ويوطئون الطريق، على ما قال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به». أم أن علته أن كثيراً من زملائنا الجامعيين الآن يأنفون أن يدرسوا لطلبتهم شيئاً آخر غير كتبهم هم ومذكراتهم وتخليصاتهم؟ واللهم نعم، فما أظن الأمر إلا من هذه البابة. وتلك قضية أخرى ينبغي أن تعالج بكثير من الشجاعة والصراحة والمكاشفة، إذا أردنا خيراً بالعلم والتعليم.

وإذا كان «الهلال» يحتفل الآن بمرور مائة سنة على مولده - فسح الله في مدته وأنسأ في أجله - فإن من حق أبناء هذا الجيل الذين لم يشهدوا تلك الأيام، وبخاصة في النصف الأول من هذه المائة، حين كانت مصر تغلي بالرجال العظام،

رجال الفكر والعلم والأدب، وحين كانت مطابعها اليدوية (البدائية) تقذف كل ساعة بروائع العلم والبيان. أقول: إن من حق هذا الجيل أن يعرف شيئاً يسيراً عن إمام من أئمة البعث والإحياء، وهو شيخ العربية وحارسها: أبو فهر محمود محمد شاكر، الذي ولد في بيت علم وأدب بالإسكندرية، أول فبراير سنة 1909 م ولا زال بحمد الله ممتعاً بحواسه كلها، يقرأ الكتب الطوال، ويعلم ويرشد.

إن أقصى ما يعرفه كثير من الناس عن أبي فهر أنه صاحب الخصومة مع الدكتور طه حسين، حول قضية الشعر الجاهلي، وحول المتنبي، وصاحب الخصومة مع الدكتور لويس عوض حول أبي العلاء المعري والفتن الأخرى المنشورة في «أباطيل وأسمار»، ثم يعرفه المشتغلون بالدراسات الأدبية بقراءته الفذة وشرحه النادر لطبقات فحول الشعراء، ويجمل بعضهم معرفته به في هذه العبارة الفضفاضة التي لا تدل على شيء: «شيخ المحققين».

والحقيقة أن الرجل وراء هذا كله، وفوق هذا كله: إنه تاريخ ضخم لرجل تنبه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى هموم أمته، وما يراد بها ويكاد لها. فألقى الدنيا كلها وراء ظهره ودبر أذنيه، ولم يبال أقبلت أم أدبرت، واستوى عنده سوادها وبياضها. ثم أخذ نفسه بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبياً، وأقبل على الشعر مبكراً يحفظه لا كما يحفظه الناس: مقطوعات للإنشاد، والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده ـ كان ولا يزال ـ باب العربية كلها. وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، كما ذكرت سابقاً، ونقلت لك مقالته من «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا». والمكتبة العربية كلها عند أبي فهر كتاب واحد، والعلوم العربية عنده علم واحد، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته للمواقف لعضد الدين الإيجي، وأبلغ ما يقال عنه بالتعبير المصري، أنه «خد البيعة على بعضها»، وهو إذا أخذ في قراءة كتاب اندفع فيه إلى آخره ولو بلغت صفحاته المئين وما فوق المئين، فهو لا يتعامل مع الكتب تعامل الحاجة والمرجع، فيكون أخذه منها كحسوة الطائر أو قبسة العجلان. وما ظنك برجل قرأ «لسان العرب» كله وهو تلميذ بالثانوي! وإني وإن كنت أطوي الكلام طيّاً، فلا بد لي من الإشارة إلى

علم من علوم العربية والإسلام، برع فيه أبو فهر براعة شديدة، وهو مما لا يعرفه كثير من الناس فيه: ذلك هو «علم الجرح والتعديل» ذلك العلم العظيم الذي يتصل بالكلام على حديث رسول الله ﷺ، سنداً ومتناً، وهو علم يمثل أرقى المناهج في قبول الأخبار وردها ـ وقد وظفه أبو فهر توظيفاً جيداً في دراسته عن المتنبي ـ:

وبيان ذلك أن أبا فهر نشر ـ في الخمسينات ـ من تفسير الإمام الطبري، ستة عشر جزءاً، وترى في حواشي هذه الأجزاء غرائب من شروح اللغة والشعر وعلوم الإسلام، لكن الجانب البارز في هذه التعليقات هو الكلام على الأحاديث جرحاً وتعديلاً. ويعتقد الناس أن هذا من عمل أخيه محدث العصر الشيخ أحمد محمد شاكر، لأن أغلفة الأجزاء كتب عليها (حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر ـ راجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر) والشيخ أحمد شاكر من العلم بالحديث بمكان راسخ وفضله غير منكور، لكن الحقيقة أن تخريج أحاديث الطبري كله عمل خالص لأبي فهر، وإن كان قد رجع إلى أخيه في مواضع قليلة جداً، وإن أردت أن تعرف صدق هذا فانظر إلى كتاب الطبري الآخر «تهذيب الآثار» وهو عمل خالص لأبي فهر، ونشر بعد تفسير الطبري بسنوات طوال، وسترى أن المنهج واحد والقلم واحد. أقول هذا وأنا أعرف أن أبا فهر يكره هذا ويرفضه، رعاية لحق أخيه، لكني أخالف عن أمره هنا، فأَدَعُ الذي يَكره للذي أُحبّ من إظهار الحق ورعاية حق التاريخ.

أما البيان عند أبي فهر فحديثه طويل، وأسلوبه في الكتابة أسلوب عالٍ تحدر من سلالة كريمة، ومداره على التذوق الذي واتاه بعد دربة طويلة متوارثة، انطلقت من الشعر الجاهلي الذي هو أنبل كلام العرب وأشرفه، ثم استقرت عند القرآن الكريم، الذي هو البيان الإلهي الملفوظ، وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربي في ترجيعه ونغمته، في الدلالة والألفاظ والتراكيب والصور وأسلوب أبي فهر بعد ذلك أسلوب كاتب يحترم قارئه ويحبه، ويؤنسه ويمتعه، ولا يتعالى عليه بالإغماض، ولا يعنته بالرمز والإشارة إلى ما لا تطوله يداه، ولا يستخف به بالثرثرة وفضول الكلام ولو خرج هذا الرجل من الملالة والثورة

المتفجرة في نفسه التي لا تهدأ، لأتى بكل عجيبة وغريبة، ولكن الله يثبط أقواماً ليرزق آخرين. على أن هذه الملالة التي حجزته عن التأليف والكتابة جاءت بخير كثير: فقد أَخْلَتْ وجهه لطلاب العلم والمعرفة من الشرق والغرب. وأقولها بكل اطمئنان: إنه لم يحظ أحد من الأدباء الكبار المعاصرين بمعشار ما حظي به «محمود محمد شاكر» من الالتفاف حوله، والأخذ عنه، والتأثر به: طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، ضمهم هذا البيت الجامعة، ولم تفتح لهم هذه الجامعة يوماً دون يوم، أو ساعة دون ساعة، يقول الأستاذ الكبير فتحي رضوان في وصف ندوة أبي فهر: «كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقي، إذا حضر من أوربا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، وغيرهم ولم يكن من حظي أن أكون عضواً دائماً فيها، فقد كنت ألم بهم أحياناً فأراهم وأرى من العالم العربي كله ومن العالم الإسلامي على ترامیه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض في الزي والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظي أن أشهد جانباً من هذه الندوة، أحسست بسعادة غامرة، أن يبقى ركن في بلدي كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها أو يعرف عنها شيئاً في مكان آخر».

قلتُ: وقد شهدت الخمسينات الميلادية ذروة هذه اللقاءات الفكرية التي كانت تعقد في بيت أبي فهر، وفي تلك الأيام كان صوته يدوي بالشعر الجاهلي - من الأصمعيات والمفضليات ونحوهما - ينشده تلاميذه، ويخوض بهم لججه، ويفتح لهم مقفله، ويكشف لهم عن أسراره، ثم أفضى ذلك إلى فنون أخرى من علومنا، دلهم عليها، ورغبهم فيها.

وبعد، فهذا حديث موجز عن أبي فهر، فاقبلْ منه ما تقبل، وأَنكِرْ منه ما تنكر، لكني أشهد الله أنك لو عرفت ما عرفت، ولو ذقت ما ذقت لنسبتني إلى التقصير، وقضيت عليّ بالعجز. على أني لست أجد لي ولك إلا ما قاله تاج الدين

السبكي، في ترجمته لأبيه تقي الدين، قال: «وأنا أعرف أن الناظرين في هذه الترجمة على قسمين: قسم عرف الشيخ كمعرفتي، وخالطه كمخالطتي، فهو يحسبني قصرت في حقه، وقسم مقابله، فهو يحسبني بالغت فيه، والله المستعان».

أما أنت يا أبا فهر:

فلقد عُرِفتَ وما عُرِفتَ حقيقة ولقد جُهِلتَ وما جُهِلتَ خُمولا

كتب الله لك السلامة والعافية.